مجلة المجمع العلمي

إشكاليةُ مُصْطَلَحَي اللُّغَةِ الفَصيحَةِ واللُّغَةِ الفُصْحى في تراثِنا اللُّغويِّ

الدكتور عامر باهر أسمير الحيالي
جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

الملخـص :

لفتني في أثناء استقرائي المعجمات العربية القديمة ومؤلفات علماء اللغة الأوائل أن أصحابها لم يستعملوا فيها مصطلح اللغة الفصيحة إلا في مواضع معدودة ، كما وجدت معظمهم لم يأتِ على ذكر مصطلح اللغة الفصحى قط؛ بيد أني توصلت الى أن إشكالية هذين المصطلحين لا تكمن في قلة استعمالهم إياهما أو في عدمه ، بل تكمن في خلطهم بينهما تارة ، وتعدد المصطلحات الدالة على مفهوميهما لديهم تارة أخرى ؛ لذا ستكون مهمة هذا البحث :

تأصيل مفهومي هذين المصطلحين لبيان الفرق بينهما من حيث اللغة والاصطلاح ، ومن ثم تأكيد أن كلا منهما مصطلح قائم برأسه .

وفي ضوء ما تقدم جعلت هذا البحث في تمهيد ومبحثين ، تحدثت في التمهيد عن مفهوم المصطلحين في اللغة والاصطلاح ، وتكلمت في المبحث الأول على إشكالية المصطلحين لدى علمائنا الأوائل حتى نهاية

القرن الرابع للهجرة ، أما المبحث الثاني فخصص للحديث عن إشكالية المُصْطَلَحين لدى علمائنا القدماء منذ نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، آمل أن أكون قد وفقت في عملي هذا والله من وراء القصد .

المقدمة :

مصطلحا الفصيحة والفصحى في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ) : ((الفاء والصاد والحاء أصل يدل على خلوص في شيء ونقاء من الشَّوب . من ذلك اللسان الفصيح : الطليق . والكلام الفصيح : العربي ، والأصل أفصح اللَّبَنُ : سكنت رغوته . وأفْصَحَ الرجل : تكلم بالعربية وفَصُح : جادت لغته حتى لا يلحن ... وحكي : فَصُحَ اللبن فهو فصيح ، إذا أخذت عنه الرغوة. قال:

وتحتَ الرَّغْوةِ اللَّبنُ الفصيحُ)) [١]

ومن هذا التعريف تبرز معاني الفصاحة الآتية : الخلوص ، والصحة والوضوح ، والجودة ، وانعدام اللحن ، والبيان والسلامة من الإبهام وسوء التأليف[٢]، فالرجل الفصيح في ضوء ما تقدم هو من أبان وأوضح في كلامه، وجادت لغته حتى لا يلحن ، واللفظ الفصيح ، هو الكلام العربي المحض ، واللغة الفصيحة هي التي خلصت مما يشوبها من العامي والدخيل .

---

[١] مقاييس اللغة : ٥٠٦/٤ ـ٥٠٧ ، وينظر : الصحاح : ٣٩١/١.

[٢] ينظر : الفصاحة فصاحات أو الدعوة إلى ضرورة مراجعة أصول الفصاحة : محمد رشاد الحمزاوي ، حوليات الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد١٦، ١٩٧٨، ص٤٨.

إذا كانت المعاجم العربية قد اقتصرت في حديثها عن الفصاحة على توضيح الأصل اللغوي لمصطلح الفصاحة ، وأوضحت دلالة الفصيح لغة ، فإنها لم تشر إلى دلالة مصطلح الفصحى إشارة صريحة مع أنها مشتركة في الأصل اللغوي مع مصطلح الفصيحة ، الحق إن معرفة مفهوم مصطلح اللغة الفصحى وعلاقته بمصطلح اللغة الفصيحة هي مسألة ذات صلة بموضوع (أفعل التفضيل) ، أو (اسم التفضيل) الذي عرفته كتب الصرف بأنه اسم مشتق على صيغة (أفْعَلَ) للمذكر و(فُعْلى) للمؤنث ، للدلالة على أن هناك شيئين اشتركا في صفة معينة ، وزاد أحدهما على الآخر في هذه الصفة [٣] ، ولتوضيح العلاقة بين الفصيحة والفصحى في ضوء هذا التعريف نضرب المثال الآتي :

إذا قلنا : إن كل لغة من لغات القبائل العربية الست التي وردت في مقولة الفارابي[٤] تعد (لغة فصيحة) ، نقول بإزائها إن اللغة التي نزل القرآن الكريم بها تعد (اللغة الفصحى) ، وهذا يعني أن لغات القبائل

---

[٣] ينظر: الصرف الواضح : ١٨٦ ، والصرف الوافي : ١١١.

[٤] قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه : الألفاظ والحروف : ((كانت قريشٌ أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النُطْق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانَة عمّا في النفس ، والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقْتُدِي وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربيٌّ من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصْريف ثم هذيل وبعض كِنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضَريٍّ قطّ ولا عن سكّان البَرَاري ممن كان يسكنُ أطرافَ بلادِهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم...)) / المزهر:١/٢١١ ــ٢١٢.

العربية ولغة القرآن كلها اشتركت في صفة واحدة هي " الفصاحة" ، إلا أن لغة القرآن زادت فصاحتها على فصاحة لغات القبائل العربية ؛ ولهذا أطلق على لغة القرآن مصطلح (الفُصحى) على وزن(فُعلى) فهو إذًا (اسم التفضيل) ، ويسمى (المُفضَّل) ، وأطلق على لغات القبائل مصطلح (الفصيحة) ، ويسمى المُفضَّل عليه ، أو المفضول[٥] ؛ وهذا يعني أن مستوى الفصحى أعلى من مستوى الفصيحة ، بل هو أعلى مستويات اللغة العربية ؛ لأن اختلاف المبنى في العربية يؤدي إلى اختلاف المعنى ، وعليه فإن مصطلح اللغة الفصيحة لا يرقى إلى مستوى مصطلح اللغة الفصحى بالضرورة ، ولذلك قال ابن خالويه في شرح الفصيح : ((قد أجمع الناسُ جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ، لا خلاف في ذلك))[٦] ؛ يفهم من كلام ابن خالويه أن هناك مستويين "فصحى"وهي لغة القرآن الكريم ، وفصيحة وهي مستوى دون المستوى الأول ، وعليه يمكننا القول إن الصلة بين اللغة الفصيحة واللغة الفصحى هي من قبيل صلة الخاص بالعام ، فكل فصحى فصيحة بالضرورة ، ولا يكون العكس .

أما الفصيح بالمعنى الاصطلاحي عند علماء اللغة فهو ما كثر استعماله على ألسنة العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم وأن يكون

---

[٥] ينظر : الصرف الواضح : ١٨٥.

[٦] المزهر في علوم اللغة وأنواعها :١/١٢٩.

استعمالهم له أكثر[٧]. واللغة الفصيحة هي التي خلصت مما يشوبها من العامي والدخيل ، وعيوب اللهجات .

أما الفصحى في الاصطلاح فقد يحلو للكثير من طلاب العربية أن يصفوها بأنها لهجة قريش أو لغة قريش مدعين أن العرب قد أخذوا هذه اللغة الفصحى عن تلك القبيلة العظيمة ، وعلى هذا الأساس عدت لغة قريش أفصح لغة من بين لغات القبائل العربية ، وهذا سبب قول القائلين إن القرآن قد نزل بها ، ولسنا بحاجة إلى مناقشة هذه المسألة في هذا البحث ؛ لأن ليس هذا مجالها؛ولأن الدكتور تمام حسان قد كفانا مؤونة ذلك بردّه هذه الدعوى وكلامه عليها كلاما مفصلا. [٨]

والحق أقول : إن اللغة الفصحى هي ليست لغة قريش ، إذ أن اللغة الفصحى لا يمكن أن توصف على أنها لغة هذه القبيلة أو تلك ؛ لأن فيها خصائص للغات عربية متعددة ، وهذه اللغات تقترب إلى حد بعيد من الفصحى التي أخذت من لغة تميم ومن غيرها من لغات القبائل الفصيحة

---

[٧] ينظر : م.ن : ١/ ٢٠١ ، وكتاب الفصيح : ص٦٢ (مقدمة المحقق) ، والتعريفات : ص٩٥، الذي ركز فيه مؤلفه على تعريف البلاغيين للفصاحة، وقد عرف القزويني الفصيح من الكلام بأنه ((ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له، بعد أن لا يكون ساقطا ، ولا للفظ العامة مشبها))/الإيضاح في علوم البلاغة :١/ ٧٢.

[٨] ينظر:الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : ص٧٤ وما بعدها. والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : ص٢٨ ، وفقه اللغة لوافي : ص١١٢ ، ودراسات في فقه اللغة : ص١٠٩ .

كما أخذت من لغة قريش إلا أن ما أخذته من لغة قريش كان أكثر[٩] ، فالفصحى على هذا الأساس لغة العرب جميعا ، ولذلك وصفت باللغة الموحدة ، والمشتركة ، وعرفت اصطلاحا بأنها ((تلك اللغة التي عرفها العرب أنفسهم لغةً رسميةً : لغة الصحراء قبل أن تتفرق القبائل إثر الفتح ، وهي التي كانت تتمثل بخاصة في الشعر الذي ازدهر قبل بعثة محمد "صلى الله عليه وسلم" ، ثم استمر ازدهارها في عصر صدر الإسلام ، حتى نهاية الدولة الأموية ، كما أنها تتمثل من جهة أخرى في القرآن.وقد كانت هذه اللغة الموضوع الوحيد الذي أُفْرِغَت له البحوث النحوية واللغوية التي قام بها العلماء العرب تلكم هي (اللغة الفصحى))[١٠] ، وتوصف لغات القبائل العربية بأنها فصيحة أو غير فصيحة ، بمقدار قربها من العربية الفصحى لغة القرآن الكريم أو بعدها عنها.

وسيكون ما انتهيت إليه في هذا المهاد النظري منطلقا لي ومعتمدي في دراسة إشكاليةِ مُصْطَلَحَي اللُّغَةِ الفَصيحَةِ واللُّغَةِ الفُصْحى في تراثِنا اللُّغويِّ .

---

[٩] ينظر : الوجيز في فقه اللغة : ص١٠٣ ، وأفصحية لهجة قريش بين النفي والإثبات : ٤٨٨ ، واللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف، والأحكام : ص٤ .

[١٠] العربية الفصحى:٣٠.

المبحث الأول

الإشكالية لدى علمائنا الأوائل حتى نهاية القرن الرابع للهجرة

أثبت الاستقراء أن علماءنا الأوائل من المعجميين واللغويين لم يستعملوا مصطلح اللغة الفصيحة ، إلا في (ثلاثة وعشرين موضعا) ـــ في كل ما أطلعت عليه من كتبهم ـ ، (ستة مواضع) منها وردت في "جمهرة اللغة"[١١] لابن دريد(ت٣٢١هـ) و(خمسة مواضع) وردت في "تهذيب اللغة"[١٢] للأزهري(٣٧٠هـ) ، و(ثلاثة مواضع) وردت في "الخصائص" لابن جني(ت٣٩٢هـ) ، [١٣] و(أربعة مواضع) وردت في "تاج اللغة وصحاح العربية" لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت حدود ٤٠٠هـ)[١٤] ، في حين لم يرد هذا المصطلح في "كتاب العين" ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ولا في "كتاب الجيم" لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦هـ) ، ولا في كتاب "المحيط في اللغة " للصاحب بن عباد (٣٨٥هـ) .

كما أثبت الاستقراء أن معظم اللغويين والمعجميين الأوائل لم يستعملوا مصطلح الفصحى فيما ألفوه من الكتب ، فقد تهيأ لي أن أبحث عن هذا المصطلح في معجمات : "العين" للخليل و"الجيم" لأبي عمرو الشيباني ، و"جمهرة اللغة" لابن دريد ، و"تهذيب اللغة للأزهري و"المحيط

---

[١١] ينظر :١/ ٢٦٠ ـ٢٦١، ٣١٩، ٤٥٧، ٦٠٥، و٢/ ٨٠٠ ، ٨٠٧ .

[١٢] ينظر : ١/ ٥١، و٧/ ٧٨، و١٠/ ١٩٣، و١٢/ ٢٧٧، و١٥/ ٢٧٦.

[١٣] ينظر : ٢/ ٢٦، ٢٩، ٢١٩.

[١٤] ينظر : ٣/ ٩٧٨، و٥/ ١٧٤٨، و٦/ ٢١٦٧.

في اللغة" للصاحب بن عباد و"مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس و"تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري ، فلم أجد من الذين تقدم ذكرهم من جاء على ذكر هذا المصطلح ، حتى في أثناء كلامهم على مادة "فصح" ، كما بحثت عن هذا المصطلح في كتب اللغة[١٥] المشهورة ككتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، وكتاب الفصيح ، لأبي العباس ثعلب(ت٢٩١هـ) ، وكتاب "الخصائص" لابن جني ، وكتاب "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" لأحمد بن فارس ، فلم أجد فيها ذكرا لهذا المصطلح ، إلا في موضعين :

الأول : يمثله تلميح ثعلب إلى مصطلح الفصحى في مقدمة "كتاب الفصيح" المتمثل بقوله : ((هذا كتاب اختيار فصيح الكلام ، مما يجري في كلام الناس وكتبهم ، فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها ، فأخبرنا بصواب ذلك ، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترنا أفصحهن[١٦]...)) ، فالملاحظ أن ثعلبا قال: " فاخترنا أفصحهن "، أي يعني أفصح اللغات ، أو لنقل الفصحى منها ، ولم يقل فاخترنا الفصيحة منها؛ لأن اللغات غير المختارة فصيحة أيضا في نظره ونظر غيره .

---

[١٥] لعل هذا الحكم ينسحب على كتب النحو أيضا ، إذ تهيأ لي أن أستقري "الكتاب" لسيبويه (ت١٨٠هـ) ، فلم أجد فيه ذكرا لهذا المصطلح أيضا.

[١٦] كتاب الفصيح : ، ص٢٦٠ (مقدمة المؤلف) .

والثاني: يمثله تصريح ابن جني بالمصطلح في كتابه " الخصائص" ، معبرا به عن مفهوم الفصحى الذي ذكرناه آنفا[١٧] ، كما سيأتي. وهذا يعني أن هذا المصطلح لم يستعمل بلفظه الصريح فيما أطلعت عليه من المعجمات وكتب اللغة حتى نهاية القرن الرابع للهجرة ماعدا نص الخصائص المشار إليه.

إن عدم استعمال مصطلحي الفصيحة والفصحى من لدن معظم المعجميين وعلماء اللغة الأوائل أو ندرة استعماليهما لا يعني عدم وضوح مفهوميهما لديهم ، فسياق النصوص فيما أوردوه من الكلام المتضمن هذين المفهومين يدل على وعي كامل لمستوييهما ، لكن الباحث يعزو ذلك إلى أن مصطلحي الفصيحة والفصحى كانا على ما يبدو غير شائعين ، ولما يستقرا بعد .

وعلى الرغم من أن عدم استعمال المصطلحين من لدن معظم المعجميين وعلماء اللغة الأوائل لا يعد إشكالية في حد ذاته ، لوضوح مفهوميهما ــ كما ذكرنا ــ فقد ترتب على ذلك خلط بين المصطلحين في الاستعمال تارة ، وعدول عنهما ، باستعمالهم مصطلحات أخر معادلة لهما تارة أخرى ، وهنا تكمن إشكالية مصطلحي الفصيحة والفصحى في تراثنا اللغوي . وفي ضوء ما تقدم توصل هذا البحث إلى أن للإشكالية وجهين اثنين هما :

---

[١٧] ينظر : الخصائص: ١/٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، وسيرد النص كاملا في ص٧ من هذا البحث .

الوجه الأول : الخلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى.

الوجه الثاني : تعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة و الفصحى .

وفيما يأتي توضيح لوجهي الإشكالية:

الوجه الأول : الخلط بين مصطلحي الفصيحة و الفصحى:

يعد هذا الوجه أبرز وجهي الإشكالية ، إذ وجدت المعجميين وعلماء اللغة يكثرون من استعمالهم "مصطلح اللغة الفصيحة" دالا على " مصطلح اللغة الفصحى" ، وفي هذا خلط بين المفهومين ، ومما يؤكد حدوث خلط بين المصطلحين النصوص الآتية :

ـ قال ابن دريد : ((الخَصْم : المخاصِم والمخاصَم ، وهما خصمان ، أي كل واحد منهما خصم صاحبه لأنه يخاصمه . وفلان خَصْمي ، الذكر والأنثى والواحد والجميع فيه سواء ، وهي اللغة الفصيحة . وفي التنزيل : "وهل أتاك نبأُ الخَصْم إذ تسوَّروا المِحرابَ"[١٨] ، فهذا في معنى الجمع ، يعني الملائكة الذين دخلوا على داود ففزع منهم.))[١٩]

ـ وقال الأزهري : ((وقال الفرَّاء: يقال : سَخِرْتُ منه ولا تَقُلْ : سَخِرْتُ به ، قال الله : " لا يسخر قوم من قوم"[٢٠]. وقال ابن السِّكِّيت : تقول : سَخِرْتُ من فلان ، فهذه : اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ ، قال الله :

---

[١٨] سورة ص : الآية ٢١ .

[١٩] الجمهرة : ١/٦٠٥.

[٢٠] سورة الحُجرَات : الآية ١١.

" فيسخرون منهم سخر الله منهم "[٢١] ، وقال جلّ وعزّ[٢٢] : "إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم"))[٢٣]

ـ وقال ابن جني : ((وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول : إنه يحكى كلام أبيه وسلفه ، يتوارثونه آخر عن أول ، وتابع عن متَّبَع. وليس كذلك أهل الحضر؛ لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة . غير أن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب في حروفهم ، وتأليفهم إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح)) [٢٤] .

ـ وقال الجوهري : ((والضَّلال والضَّلالة: ضدُّ الرّشادِ . وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ . قال تعالى : [٢٥] " قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي " فهذه لغة نجد ، وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون: ضَلِلْتُ بالكسر أَضِلُّ)) .[٢٦]

إن من ينعم النظر في هذه النصوص يجد فيها خلطا واضحا بين مصطلحي اللغة الفصيحة واللغة الفصحى ، فمصطلح اللغة الفصيحة في كل تلك النصوص جاء معادلا لمصطلح اللغة الفصحى ، إما لورودها في

---

[٢١] سورة التّوبَة : الآية ٧٩.

[٢٢] سورة هُود : الآية ٣٨ .

[٢٣] التهذيب : ٧٨/٧.

[٢٤] الخصائص : ٢٩/٢.

[٢٥] سورة سبأ : الآية ٥٠ .

[٢٦] الصحاح : ١٧٤٨/٥.

القرآن الكريم كما في نصوص الجمهرة والتهذيب والصحاح[٢٧] ، أو لأن السياق يدل على أنها جاءت بمعنى اللغة الفصحى كما في نص ابن جني .

ــ وممن خلط بين مصطلح الفصيح ، والمصطلح التفاضلي المعياري" أفصح" ابن فارس وذلك في قوله : ((الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيء بشيء من ذلك الزوج : زوج المرأة ، والمرأة زوج بعلها ، وهو الفصيح . قال الله جل ثناؤه [٢٨] : "اسكن أنت وزوجك الجنة"))[٢٩] ، فابن فارس نعت ما ورد في القرآن بالفصيح ، مع أن مصطلح " الأفصح " أنسب للسياق .

ــ ومن أبرز الأمثلة على الخلط بين المصطلحين قول أبي جعفر النحاس المتوفى سنة (٣٢٨هـ) عن لغة الحجاز إنها اللغة : ((القديمة الفصيحة))[٣٠] ، فالنحاس عد لغة الحجاز هاهنا اللغة الفصيحة ، ووصفها بالقديمة ، في حين جاء ابن جني(٣٩٢هـ) بعده ليقرر أن لغة أهل الحجاز ، هي (اللغة الفُصْحى القُدْمى.) ، جاء ذلك في كتابه "الخصائص في "باب في مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكما لا زمانا ووقتا" ، ويتمثل ذلك بقوله: ((واعلم مع هذا أن بعض ما ندعي أصليَّته من هذا

---

(٢٧) أود أن أنوه هاهنا بأن الفيومي قد ذكر هذا النص لكنه استعمل مصطلح الفصحى بدلا من الفصيحة وهو الأدق كما سأوضح هذه المسألة في المبحث الثاني من هذا البحث .

(٢٨) سورة البقرة : الآية ٣٥ .

(٢٩) المقاييس : ٣٥/٣ .

(٣٠) إعراب القرآن : ٣١٣/٣ ، وينظر: اللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف ، والأحكام : ص٢.

الفن قد يُنْطَقُ به على ما ندَّعيه من حاله – وهو أقوى الأدلة على صحة ما نعتقده من تصور الأحوال الأُوَل – وذلك اللغتان تختلف فيهما القبيلتان كالحجازية والتميمية ؛ ألا ترى أنا نقول في الأمر من المضاعف في التميمية – نحو شُدّ وضَنّ وفِرّ واستَعِدّ واصطبّ يا رجل ، واطمئنّ يا غلام –: إن الأصل اشدُدْ ، واضنَنْ ، وافرِرْ ، واستعدِد ، واصطبِب ، واطمأْنِنْ ، ومع هذا فهكذا لغة أهل الحجاز ، وهي اللغة الفُصْحى القُدْمى.))[٣١] فابن جني عد لغة الحجاز هاهنا اللغة الفصحى ، ووصفها بالقُدْمى ، وعزا ذلك إلى ورودها في القرآن ، حين قال : ((ويؤكد ذلك قول الله سبحانه: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ } أصله استطاعوا فحذفت التاء لكثرة الاستعمال ولقرب التاء من الطاء وهذا الأصل مستعمل ألا ترى أن عقيبه قوله تعالى {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}))[٣٢] ، وهذا أحد وجهي إشكالية مصطلحي الفصحى والفصيحة ، فالقارئ بإزاء هذا الخلط بين المصطلحين لا يدري إن كانت لغة الحجاز فصحى ، أم فصيحة ، قُدْمَى أم قديمة ، أم أن النحاس استعمل اللغة الفصيحة معادلة للغة الفصحى ، والقديمة معادلة للقدمى ، أم أن ابن جني استعمل المصطلح بلفظه الصريح الدقيق ، لكن الباحث يرى أن وصف ابن جني اللغة الحجازية بالفصحى هو الأدق

([٣١]) الخصائص : ٢٥٩/١ ــ ٢٦٠، ومن الجدير بالذكر هاهنا أن ابن جني قد وصف اللغة الحجازية في مكان آخر من الخصائص : ٣٢٥/٢ بقوله : ((وهي اللغة الحجازية القوية .)) فمصطلح اللغة الحجازية القوية هو أقرب إلى مصطلح اللغة الفصحى في هذا النص منه إلى اللغة الفصيحة ، والله أعلم .

([٣٢]) م.ن : ٢٥٩/١ ــ ٢٦٠.

لورودها في القرآن ، ومما يؤكد ذلك أيضا نص ورد في كتاب سيبويه وهو قوله : ((والحجازية هي اللغة الأولى القدمى))[٣٣] ، وليس ببعيد أن يكون النحاس وابن جني قد أخذا كلام سيبويه عن طريق الرواية الشفوية ، وحدث فيه ما حدث من اختلاف في ألفاظه ، فأثر ذلك في دلالة المصطلح.

وقد يظن ظان أن مصطلح "اللغة الفصيحة" ، في هذه النصوص وغيرها قد استعمل وصفا للغات القبائل العربية ، ولم يستعمل وصفا للغة الفصحى أو المشتركة أو الموحدة كما يسميها المحدثون في زماننا ، أقول لمن يظن مثل هذا الظن :لو كان قصد المعجميين وعلماء اللغة بهذا المصطلح لغات القبائل العربية لجاؤوا بالمصطلح نكرة ، أي لقالوا : "لغة فصيحة" بتنكير الصفة والموصوف ، حينها لا يكون هناك خلط بين المصطلحين ، أما وأنهم قد استعملوا المصطلح بصيغة التعريف " اللغة الفصيحة" ، فهذا دليل على أن الأدق أن يستعملوا مصطلح" اللغة الفصحى" كما هو واضح في كل النصوص التي جيء بها للدلالة على الخلط بين المصطلحين .

مما لاشك فيه أن هذا الخلط في استعمال مصطلح اللغة الفصيحة دالا على مصطلح اللغة الفصحى يولد إشكالية كبيرة تربك قارئ هذه الكتب والمعجمات ، و تنبئ عن وجود اضطراب لدى أصحابها من جهة ، وتؤكد ما ذهبنا إليه من حيث أن المصطلح غير مستقر لديهم ، ولمّا يتبلور بعد من جهة أخرى .

---

(٣٣) كتاب سيبويه : ١٨٧/١.

الوجه الثاني : تعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة والفصحى :

لم أعثر على نصوص كثيرة تدل على استعمال المعجميين واللغويين مصطلحات يدل السياق على أنها معادلة لمصطلح اللغة الفصيحة ما عدا ما وجدته من نصوص استعملوا فيها مصطلحي "اللغة القوية" ، واللغة الجيدة ، في مواضع معدودة في كل ما استقريته من كتبهم ومعجماتهم ، وعلى العكس من ذلك وجدتهم يستعملون مصطلحات معادلة للفصحى في مواضع كثيرة ، أمثال استعمالهم مصطلح (كلام العرب)، و (اللغة العالية) وفي مواضع أقل (لغة العرب) ، أو أنهم يستعملون المصطلحات المعيارية التفاضلية أمثال (أفصح) ، و(أكثر) ، و(أعلى) .

وفيما يأتي توضيح لهذه الإشكالية بكل تفرعاتها :

أولا : المصطلحات المعادلة للفصيحة:

١ــ لغة قوية :

ومن أمثلتها قول ابن جني الآتي الذي ذكره في باب : العربي الفصيح ينتقل لسانه : ((اعلم أن المعمول عليه في نحو هذا أن تنظر حال ما انتقل إليه لسانه . إن كان إنما انتقل من لغته إلى لغة أخرى مثلها فصيحة وجب أن يؤخذ بلغته التي انتقل إليها كما يؤخذ بها قبل انتقال لسانه إليها ... فإن كانت اللغة التي انتقل لسانه إليها فاسدة لم يؤخذ بها ويؤخذ بالأولى حتى كأنه لم يزل من أهلها ، وهذا واضح ، فإن قلت : فما يؤمنك أن تكون كما وجدت في لغته فسادا بعد أن لم يكن فيها فيما علمت أن يكون فيها فساد آخر فيما لم تعلمه ... إن اتجه هذا انخرط عليك منه ألا تطيب نفسا بلغة وإن كانت فصيحة مستحكمة . فإذا كان أخذك بهذا مؤديا إلى هذا

رفضته ولم تأخذ به وعملت على تلقي كل لغة قوية معربة بقبولها واعتقاد صحتها))[٣٤] ، فالظاهر من السياق أن قول ابن جني : " كل لغة قوية معربة" ، يعادل قوله : " كل لغة فصيحة معربة". ولا يبعد أن يأتي هذا المصطلح معادلا للغة الفصحى ، والفيصل في ذلك هو السياق الذي يرد فيه .[٣٥]

٢ــ لغة جيدة :

استعمل علماؤنا القدماء هذا المصطلح معادلا لمصطلح "اللغة الفصيحة" ، ومن الأمثلة على ذلك :

*قال الأزهري[٣٦] : ((قلت :ومن العرب من يقول :طاع له يطوع طوْعا فهو طائع بمعنى أطاع أيضا.وطاع يَطاعُ لغةٌ جيدة))[٣٧]. والظاهر من السياق أن قوله : لغةٌ جيدة :يعني لغة فصيحة؛ لأن المصطلح جاء نكرة ،

---

(٣٤) الخصائص : ١٣/٢.

(٣٥) ومن أمثلة ذلك قول ابن جني في الخصائص : ٣٢٥/٢ : ((ألا ترى أن ما كان من تكسير فَعِل وفَعُول وفَعال وفِعالٍ مما لامه معتلة لا يأتي على فُعُل . فلذلك لم يقولوا في كِساءٍ : كُسُوٌ ولا في رِداء : رُدُيٌ ولا في صبيّ : صُبُوٌ ولا نحو ذلك لأن أصله فُعُل . وهي اللغة الحجازية القوية)) ، فمصطلح اللغة الحجازية القوية هو أقرب إلى مصطلح اللغة الفصحى في هذا النص منه إلى اللغة الفصيحة ، كما يفهم من السياق .

(٣٦) ورد هذا المصطلح في التهذيب في أربعة عشر موضعا ، جاء في قسم منها معادلا للفصيح وفي قسم آخر جاء معادلا للفصحى.

(٣٧) م.ن : ١٠٦/٣.

بتنكير الصفة والموصوف ، فلو قال :اللغة الجيدة لقصد الفصحى، كما أوضحت ذلك آنفا.

*وقال الجوهري : ((قال الفراء يقال: مرَّ بى فلان فما عَرَضْتُ لهُ وما عَرِضْتُ له ، لغتان جيدتان))[٣٨] ، ولا يبعد أن يأتي هذا المصطلح معادلا للغة الفصحى ، والفيصل في ذلك هو السياق الذي يرد فيه.[٣٩]

ثانيا : المصطلحات المعادلة للفصحى : ترتب على عدم استعمال معظم علمائنا الأوائل مصطلح اللغة الفصحى بلفظه الصريح عدولهم عنه ، باستعمالهم مصطلحات أخر مخالفة له باللفظ و معادلة له بالمفهوم ، وها نحن ننسق هذه المصطلحات مرتبة بحسب كثرة استعمالها في كتب اللغة والمعجمات ، وكما يأتي :

١ــ مصطلح كلام العرب :

ويقصد به المصطلح المعادل للغة العربية الفصحى ، وهو الكلام الذي بقي محافظًا على سلامته وخلوصه ونقائه وأصالته ، وسلم من تأثيرات اللحن الذي نشا نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخر ، ويمثله من اللغة المحفوظة (المكتوبة) القرآن الكريم ، وكلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وشعر العرب قبل الإسلام ، وكلام فصحاء العرب ، والشعر الإسلامي ، ويمثله من اللغة المسموعة (المحكية) لغة الأعراب من البدو ، ولغة القبائل العربية المشهود لها بالفصاحة.

---

(٣٨) الصحاح : ١٠٨٢/٣.

(٣٩) ومن أمثلة ذلك قول الجوهري في الصحاح ٢٤٩٧/٦: ((وأمليت الكتاب أُملى ، وأمللته أمُلُّهُ ، لغتان جيدتان جاء بهما القرآن)) ، وينظر : التهذيب : ١٨٩/٧.

ومن مظاهر اعتداد المعجميين بكلام العرب أنهم جعلوا منه مقياسا للصواب والخطأ ، فما جاء مطابقا لمستواه الصوابي من الألفاظ واللغات والاستعمالات اللغوية والصيغ والتراكيب عدوه صحيحا ، وما خالفه ، أو خرج عنه ، عدوه خطأ ، يتساوى عندهم في ذلك المحفوظ والمسموع منه .

ومثلما حكموا المحفوظ من كلام العرب ، وجعلوه فيصلا بين ما يقبل ويرفض ، جعلوا المسموع منه (المحكي) معيارا لصحة الألفاظ أيضا . فما طابق هذا المسموع عدوه صوابا ، وأنكروا ما خالفه . كما أكدوا صراحة أن المسموع أولى من غيره . ورأوا وجوب الأخذ به . فقالوا: (يجب أن يؤخذ بالمسموع من العرب)[٤٠] ، وجعل المعجميون لكلام العرب معايير كثيرة[٤١] يتصل قسم منها بما حول اللفظ من اعتبارات الزمان والمكان والقبيلة والصحة ، ويتصل الثاني بذات اللفظ صوتا وبنية ، ولسنا بصدد الكلام على هذه المسألة في بحثنا هذا ؛ لأننا فصلنا الحديث عنها في بحث سابق لنا. [٤٢]

إن نماذج مصطلح "كلام العرب" في المعجمات أكثر من أن تحصى؛ لذا ارتأى الباحث أن يورد منها ما يناسب حجم هذا البحث ، وكما يأتي :

([٤٠]) جمهرة اللغة : ٧٦٢/٢.

([٤١]) ينظر: من إسرار اللغة : ص١٢٩، والحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية:ص ٢٧١ ، والاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس : ص١٨، وقضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي : ص٥٧ وما بعدها ، وأصالة اللغة العربية وعلومها : د.إبراهيم عبد الله رفيدة ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٦، السنة الرابعة ١٩٨٢ : ص٩ وما بعدها .

([٤٢]) ينظر :النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة: ص ٨٨ــ ١٠٦،

ـ قال الخليل : ((وكلامٌ مُولَّد: مُسْتَحدَث لم يكن من كلام العرب))[٤٣]

ـ **وقال ابن دريد** : ((ويقال للفرس : أَقْدِمْ ، زجر له كأنه يؤمر بالإقدام ؛ هكذا كلام العرب ،))[٤٤] ، ومثله قول ابن دريد أيضا : ((قال الأصمعي: الطّعْن بالرُّمح ، والطَّعَنان باللسان؛ هكذا كلام العرب))[٤٥] . أي هكذا اللغة الفصحى .

ـ **قال الأزهري** : ((أبو عبيد عن أبي زيد قال : البَوَارِحُ الشَّمْأَلُ في الصيفِ خاصةً . قلت وكلامُ العرب الذين شاهَدْتُهم على ما قالَ أبو زيد)) .[٤٦]

ـ **قال الجوهري** : ((والفصيد: دم كان يجعل في معى من فصد عرق ثم يشوى ، يطعمه الضيف في الأزمة. وفي المثل[٤٧] : " لم يحرم من فصد له " أي من فصد له البعير. وربما سكنت الصاد منه تخفيفا فتقلب زايا فيقال : " فزد له ". وكل صاد وقعت قبل الدال فإنه يجوز أن تشمها رائحة الزاى إذا تحركت ، وأن تقلبها زايا محضا إذا سكنت . وبعضهم يقول: من قصد له " بالقاف ، أي من أعطى قصدا ، أي قليلا وكلام العرب بالفاء)) ، أي اللغة الفصحى بالفاء. [٤٨]

([٤٣]) العين : ٧١/٨.

([٤٤]) الجمهرة : ٦٧٥/٢ ـ ٦٧٦.

([٤٥]) م . ن : ٩١٧/٢.

([٤٦]) التهذيب : ١٩/٥.

([٤٧]) ينظر المثل في مجمع الأمثال :١٩٢/٢، المثل ذو الرقم ٣٣٣٦.

([٤٨]) الصحاح :٨٠/٣.

وإذا ما خرج الكلام على مقاييس كلام العرب ، نفوا عنه صفة الفصاحة مستعملين مصطلح "ليس من كلام العرب"من ذلك قول الخليل: ((ورجلٌ مُشَعوذٌ ، وفعله: الشَّعْوَذَة ، ويقال: مشعبذ والشَّعْوَذيّ: كلمة ليست من كلام العرب وهي كلمة {عامية}[٤٩]))[٥٠]. وقوله أيضا: ((العِلَّوْثُ : الذئب بلغة حمير ، وهي مخالفة لكلام العرب ، لأن الشينات كلّها قبل اللاّم))[٥١]. وقد أكثر علماء اللغة والمعجميون من ذكر مصطلح" ليس في كلام العرب" إلى الحد الذي جعل ابن خالويه (٣٧٠هـ) يؤلف كتابا قائما برأسه أختار له عنوان "ليس في كلام العرب"[٥٢]. وهو المصطلح المقابل لـ(كلام العرب)أو اللغة الفصحى .

٢ـ مصطلح اللغة العالية :

تكرر هذا المصطلح كثيرا في المعجمات العربية ، وهو يأتي عند أصحابها معادلا للغة الفصحى ، وغالبا ما تذكر فيها مقابل اللغة العالية لغة أقل علوا منها ، أو لغة ليست بالعالية من باب استصحاب النقيضين ، ويعد ابن دريد من أكثر المعجميين استعمالا لهذا المصطلح[٥٣] ، ومن أمثلة استعماله مصطلح اللغة العالية معادلا للغة الفصحى قوله : ((والنهر بفتح

([٤٩]) في الأصل "عالية"، والصواب ما ثبتناه ، إذ لا يستقيم الكلام إذا قلنا :ليس من كلام العرب وهي كلمة عالية .

([٥٠]) العين:١/٢٤٤.

([٥١]) م.ن:١/٢٥٦.

([٥٢]) قال ابن خالويه في كتاب ليس في كلام العرب : ص١٧ : ((ليس في كلام العرب إنما هو على ما أحاط به حفظي وفوق كل ذي علم عليم)) .

([٥٣]) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ص٥٥ .

الهاء اللغة الفصيحة العالية ، وأصل النَّهر السَّعَة والفُسحة . وفسر قوله عز وجل في جَنّاتٍ ونَهَرٍ" ، في ضوء وفُسحة ، وهو كلام المفسرين . واللغة توجب أن يكون نهر في معنى أنهار ، كما قال جلّ ثناؤه: "يُخرجُكم طِفْلا" ، أي أطفالا ، والله أعلم والنَّهار مأخوذ من ذلك إن شاء الله.)) [٥٤] ، ومن أمثلة مجيء مقابل اللغة العالية غير فصيح قول ابن دريد أيضا ((وقد قالوا : فَرْحان وفرحانة ، ولا أحسبها لغة عالية ، وقالوا : امرأة فَرْحى))[٥٥] ، ومما يدل على أن "فرحانة" ليست باللغة الفصيحة قول ابن سيدة عنها: ((وامرأة فرحة وفرحى وفرحانة ولا أحقه))[٥٦] ، ولسنا مع ما ذهب إليه الدكتور هادي نهر بعده اللغة العالية ((أعلى مراتب الفصحى))[٥٧] ؛ لأن أعلى مراتب الفصحى هي لغة القرآن الكريم ــ كما سيأتي ــ ، ولأن اللغة العالية قد تأتي وصفا للغة القرآن ، أو قد تأتي أحيانا وصفا لغيرها ، أي أنها قد تأتي معادلة للفصيحة تارة ، ومعادلة للفصحى تارة أخرى ، والسياق الذي ترد فيه هو الفيصل في ذلك .

([٥٤]) الجمهرة : ٨٠٧/٢ .

([٥٥]) الجمهرة: ٥١٨/١.

([٥٦]) المحكم :٤٠٤/٢.

([٥٧]) اللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف ، والأحكام : د. هادي نهر ، من أبحاث المؤتمر العلمي السابع لوحدة الدراسات العمانية ، بعنوان ابن دريد الأزدي : ص٤ .

٣ــ مصطلح أفصح :

وقد أكثر المعجميون[٥٨] من استعمال هذا المصطلح معادلا للغة الفصحى[٥٩] ، ومن أمثلة استعمالهم هذا المصطلح مفردا معادلا لـ مصطلح "الفصحى" قول الخليل : ((سع : السَعْسَعَةُ : الاضطرابُ من الكِبَر تَسَعْسَعَ الإنسان : كَبِرَ وتولَّى حتى يَهْرَم ، قال رؤبة :

قالَتْ ولم تَأل به أن يَسْمَعَا يا هِنْدُ ما أَسْرَعُ ما تَسَعْسَعَا

من بعدِ أنْ كان فتىً سَرَعْرَعَا

أي شابا قويا . وعن عُمر: أنَّ الشَّهْر قد تَسَعْسَعَ فلو صُمْنا بقيته. ويروى : تَشَعْشَعَ والأوَّل أصحُّ وأفْصحُ))[٦٠] ، فقول الخليل الأول أفصح ، يعني أن الثاني فصيح أيضا ، ومما يؤكد أن مقابل مصطلح أفصح هو الفصيح تأكيدا لا يقبل اللبس قول الجوهري الآتي: ((وحَجْرُ الإنسان وحِجْرُهُ ، بالفتح والكسر ، والجمع حُجورٌ . والحِجْر: الحرام يكسر ويضم

---

(٥٨) ممن أكثر من استعمال هذا المصطلح معادلا للفصحى الجوهري ، ينظر على سبيل المثال : الصحاح:

٢١٩/١ ، ٢٣٦، ٣١٣ ، و٤٤٠/٢ ، ٤٨٥ ، ٥٥٣ ، و١١٦٥/٣ ، ١٢١٦ ، ١٢٨٦، و١٤٢١/٤، ١٦٩٨ ، و٥/ ١٨٢٦ ، ٢٠٨٢ ، و٦/ ٢١٨٣ ، ٢٤٩٧ .

(٥٩) لأن أسم التفضيل من الفعل فصح (أفصح) ، وهو اسم مشتق على وزن (أفْعَل) ، ومؤنثه (فصحى) على وزن (فُعلى) ، ينظر : الصرف الوافي : ١١١ .

(٦٠) العين : ٧٤/١ ــ ٧٥.

ويفتح ، والكسر أفصح. وقرئ بهنّ[٦١] قوله تعالى : "وحَرْثٌ حَجْـرٌ"[٦٢]. ويقـول المـشركون يـومَ القيامـة إذا رأوْا ملائكـة العـذاب: "حِجْـرا مَحْجورا"[٦٣] ، أي حراما محرَّم ، يظنون أنَّ ذلـك يـنفعهم كمـا كـانوا يقولونه في الدُّنيا لمن يخافونه في الشهرالحرام[٦٤])). فقـراءةُ (حَجْـرٌ) بالحركات الثلاث دليل على أن لغتي الفتح والضم فصيحتان ، لكن الكسر أفصح ؛ ولهذا جاء رسمُ المصحف بها في الآيتين .

ومن أمثلته قول الخليل أيضا :((وأمّا قَوْلُه:" فلا اقْتَحَمَ العقبـة"[٦٥] فـ (لا) بمعنى (لم) كأنّه قال: فلم يَقْتَحِمِ العَقَبة. ومثله قوله عزّ وجلّ:" فلا صدّق ولا صلّى"[٦٦] ، إلاّ أنّ (لا) بهذا المعنى إذا كُرِّرت أَفْصَحُ منهـا إذا لم تُكَرَّرْ)) [٦٧]

ومن الأمثلة الأخر على استعمال مصطلح أفصح معادلا لمصطلح "الفصحى قول الجوهري: ((الشُكْرُ : الثناء على المحسِن بما أَوْلاكَهُ مـن

([٦١]) ممن قرأها بالفتح (حَجْرٌ) الحسن وقتـادة ، وبالـضم (حُجْـرٌ) الحـسن وقتـادة والأعرج ، / ينظر : معجم القراءات القرآنية مع مقدمة فـي القـراءات وأشـهر القراء : ٢ /٣٢٢ ــ٣٢٣.

([٦٢]) سورة الأنعام ، من الآية / ١٣٨ .

([٦٣]) سورة الفرقان : الآية/٢٢ ، ٥٣.

([٦٤]) الصحاح : ٢ /٦٢٣.

([٦٥]) سورة البلد :الآية / ١١.

([٦٦]) سورة القيامة : الآية/٣١.

([٦٧]) العين : ٨/٢٥٠.

المعروف. يقال : شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له ، وباللام أفصح))[٦٨] ، فمعيار الجوهري أن شكرت له باللام وبالصيغة الفعلية أفصح من شكرته يعزى في نظر الباحث إلى ورود الصيغة الفعلية في القرآن متعدية باللام أكثر من تعديها بغير اللام ، فقد ورد الشكر في القرآن الكريم بالصيغة الفعلية (الماضي ، والمضارع ، والأمر) في اثني عشرة آية تعدى في تسعة[٦٩] منها باللام ، وفي ثلاث منها تعدى بنفسه[٧٠] . وحين ننعم النظر في الآيات التي ورد فيها الشكر بالصيغة الفعلية نلحظ أنه عندما يكون للذات الإلهية أو للذات البشرية (الأبوين) قد أتى متعديا باللام ، وعندما يكون لما يتصل بهم قد أتى متعديا بنفسه[٧١] ، وكأن الأمر صدقة أو تقدمة للنجوى بين يدي الله ليتقبل الشكر ، وللأبوين زيادة في القدر والتشريف بهذا الاقتران الجميل به سبحانه وتعالى.[٧٢]

([٦٨]) م.ن : ٢/٧٠٢، وللمزيد ينظر : م . ن : ١/٢٤٤ ، ١/٤١٠ ، والجمهرة : ١/ ٦٧ ، والتهذيب٢/٢٢٩.

([٦٩]) ينظر : سورة البقرة / الآيتان ١٥٢ و١٧٢ ، سورة النمل/الآية ٤٠ ، وسورة لقمان : في موضعين من الآية ، ١٢، والآية ١٤، وسورة وسورة العنكبوت / الآية ١٧، وسورة سبا / الآية ١٥ .

([٧٠]) ينظر : سورة النحل/الآية ١١٤، سورة الأحقاف / الآية ١٥.

([٧١]) هذا ملمح قد نبهت عليه طالبي في الماجستير ناظم محمد مصطفى ، فذكره في رسالته للماجستير التي كنت قد اقترحت عليه عنوانها الذي استقر على "حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن ١٩٧٨ ــ ٢٠٠٣م : ص١٤٠.

([٧٢]) ينظر : حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن ١٩٧٨ – ٢٠٠٣م : ص١٤٠.

ومن الأمثلة الأخر على استعمال مصطلح أفصح معادلا لمصطلح "الفصحى قول الجوهري أيضا : ((نَصَحْتُكَ نُصْحا ونَصاحَةً. قال الذبياني[٧٣] :

نَصَحْتُ بني عَوْفٍ فلم يَتَقَبَّلوا رسولي ولم تَنْجَحْ لديهم وسائلي

وهو باللام أفصح . قال الله تعالى: "وأَنْصَحُ لكم"[٧٤]))[٧٥].

وهذا النص يعد حجة قوية على أن لغة القرآن أعلى مراتب (الفصحى) ؛ لأنه على الرغم من أن البيت الشعري هو لأحد شعراء ما قبل الإسلام ، وهو من شعراء عصور الفصاحة ، وتوصف لغته بالفصحى ، فإن الجوهري حكم على أن لغة القرآن أفصح من لغة النابغة مع أن لغة النابغة تحسب من الفصحى أيضا ، والقارئ يلمح في مفاضلة الجوهري بين لغة القرآن ولغة النابغة أن للفصحى أكثر من مستوى واحد. وهذا يتساوق مع قول ابن خالويه المتقدم الذي نص على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك .

وفي موضع آخر يستعملون مصطلح أفصح معادلا للغة الفصحى ، ومقياس الأفصحية عندهم لغة الحديث الشريف ، من ذلك قول ابن دريد : ((ويقال: طَهَرَه وطَحَره[٧٦] ، إذا أبعده ، كما يقولون: مَدَهَه ومَدَحَه[٧٧] ،

---

(٧٣) ينظر : ديوان النابغة الذبياني : ٦٧ .

(٧٤) سورة الأعراف : الآية / ٦٢ .

(٧٥) الصحاح : ٤١٠/١ .

(٧٦) ينظر : كتاب الإبدال : ١ / ٣٢٤ .

(٧٧) ينظر : م.ن : ١ / ٣١٦ .

وأشباه هذا كثير في قلب الهاء حاءً والحاء هاء. وذكروا أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال لعمّار: "وَيْهَكَ ابنَ سُمَيَّة " ، فإن كان هذا الحديث محفوظا فالحاء إذا قلبت هاءً من أفصح اللغات ، وليس يلزم هذا في كل موضع إنما يجب أن يؤخذ بالمسموع عن العرب))[٧٨] ، فالأفصح عند ابن دريد هاهنا هو ما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي تمثل لغته اللغة الفصحى . وإذا ما أنعمنا النظر في هذه النصوص ، تبين لنا أن هناك مستويين : مستوى فصيحا ، ومستوى آخر أفصح منه .

٤ــ مصطلح أعلى:

وقد يستعملون المصطلح المعياري (أعلى) مفردا معادلا لمصطلح الفصحى ، من ذلك قول ابن دريد: ((وجزَّأتُ الشيءَ تجزئَةً ، إذا فرّقته أجزاءً ، والواحد جُزْء ، وقد قالوا: جَزْء ، وهو في التنزيل مضموم ، والضمّ أعلى اللغتين))[٧٩] ، فالذي جعل لفظ"جُزء "بالضم أعلى اللغتين ، هو ورودها في القرآن كما يفهم من قول ابن دريد.وقد يفاضل ابن دريد بين قراءتين يرى أن إحداهما أعلى من الأخرى دون أن يصرح بسبب ذلك كما فعل في قوله : ((والسَّلْق: مصدر شدّة القول باللسان؛ سلقه يسلُقه سَلْقا ، ومنه قوله جلّ وعزّ: "سَلقوكم بألسنةٍ حِدادٍ"[٨٠] ، بالسين والصاد ،

([٧٨]) الجمهرة : ٢ / ٧٦٢ .

([٧٩]) م.ن : ٢/١٠٤٠.

([٨٠]) سورة الأحزاب : الآية ١٩ ، والسين قراءة الجمهور، والصاد قراءة ابن أبي عبلة ، البحر المحيط : ٧ /٢٢٠ .

والسين أعلى.[٨١]))، وعلى الرغم من عدم تصريحه بسبب كون القراءة السينية هي الأعلى، فإن له لا محالة أسبابه، وهذا ما تأكد لدينا بعد التحقيق، فقد وجدنا أن السين هي قراءة للجمهور، والصاد هي قراءة لابن أبي عبلة[٨٢]، فمجيء القراءة عن الجمهور يعني كونها الأكثر والأشهر.[٨٣]

٥ـ مصطلحا أكثر وأفصح :

ووجدت ابن دريد لا يكتفي أحيانا باستعمال مصطلح "أفصح" مفردا معادلا للفصحى، بل استعمله مقرونا بمصطلح معياري آخر هو مصطلح"أكثر"، يتمثل ذلك بقوله: ((والعَوّا: نجم من منازل القمر يُمَد ويُقصر، والقصر أكثر وأفصح.))[٨٤].

٦ـ مصطلحا أفصح وأعلى، أو أعلى وأفصح :

ومن أنماط استعمالهم مصطلح أفصح إتيانهم به مشفوعا بالمصطلح المعياري "أعلى" ووجدتهم يفاضلون بين لغتين متفاوتتين في مستوى الفصاحة، فيقولون عن إحداهما إنها "أفصح اللغتين وأعلاهما" ومن أمثلة ذلك قول ابن دريد : ((فلان قَمِنٌ بكذا وكذا وقَمينٌ به، أي جديرٌ، فإذا قلت: هو قَمِنٌ بكذا وكذا قلت: قَمِنان وقَمِنون، فإذا فتحتَ الميم قلت: قَمَنٌ،

---

(٨١) الجمهرة : ٢/ ٨٥٠ .

(٨٢) ينظر : البحر المحيط : ٧ /٢٢٠.

(٨٣) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ص٥٥ .

(٨٤) الجمهرة : ١ / ٢٤٣ .

كان الواحد والجميع فيه سواءً ، وهي أفصحُ اللغتين وأعلاهُمـا.))[٨٥] ، وقد يقدمون مصطلح "أعلى "فيقولون" أعلى وأفصح " من ذلك قـول ابـن دريد أيضا :((التُّخْم: واحد التخوم من تخوم الأرض ، عربـي صـحيح ، زعم ذلك قوم وأنشدوا:

أبَنِيَّ التُّخومَ لا تَظلموها إنّ ظلمَ التُّخوم ذو عُقّالِ

وأنكر ذلك قوم فقالوا : التُّخْم عجميّ معرَّب . والأول أعلى وأفصح))[٨٦] فابن دريد في المثالين جاء بمصطلح أفصح مقرونا بمصطلح معياري آخر هو مصطلح أعلى.

٧ـ مصطلحا أعلى وأكثر :

وقد يأتون بمصطلح "أعلى" مقرونا بمصطلح معياري آخر هو أكثـر ، ومن أمثلة ذلك قول الأزهري : ((وقال الفراء في قول الله جل وعـز[٨٧] : (عَلَى الموسعِ قَدَرُه وعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُه) وقرئ قدرُه وقدرُه بالرفع ، ولو نصب كان صوابا على تكرير الفعل في النية ، أي ليعط الموسع قَدَرَه والمقْتِرُ قَدَرَه . وقال الأخفش : على الموسع قدرُه : أي طاقته.وأخبرني المنذري عن أبـي العباس في قوله : "على المقتر قَدَرُه وقدْرُه" [٨٨]. قال : التثقيل أعلى اللغتـين وأكثر ، ولذلك اختير. قال:واختار الأخفش التسكين ، إنما اخترنـا التثقيـل لأنه اسم وقال الكسائي: يقرأ بالتخفيف والتثقيـل ، وكـل صـواب ، قـال

([٨٥]) م.ن : ٢ / ٩٧٧.

([٨٦]) م.ن : ١ / ٣٨٩.

([٨٧]) سورة البقرة :الآية ٢٣٦.

([٨٨]) ممن قرأ قدْرُهُ بسكون الدال ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم / ينظـر: البحر المحيط : ٢/٢٣٣، ومعجم القراءات القرآنية :١/٣٢٦ ــ٣٢٧ .

قَدَر يَقدِر مقدِرة ومَقدَرةً ومَقدُرة وقدرانا وقدارا وقدرة ، كل هذا سمعناه من العرب))[٨٩] .

٨ـ مصطلح لغة العرب :

على الرغم من أن استعمال المعجميين هذا المصطلح كان أقل بكثير من استعمالهم مصطلح "كلام العرب" وغيره من المصطلحات التي ذكرناها ، فإننا وجدنا نماذج منه في معجماتهم ، من ذلك قول الأزهري الآتي : ((أبو عُبيد عن الكسائي والأصمعي وأبي زيد : عايرت المكاييل وعاورتها كقولهم : عيّرتها . وقال أبو الجراح مثله. ذكر ذلك في باب ما خالفت العامة فيه لغة العرب))[٩٠] ، يفهم من هذا النص أن مصطلح "لغة العرب" جاء معادلا لمصطلحي "اللغة الفصحى"و "كلام العرب".

ثالثا : المصطلحات المقابلة للفصحى والفصيحة :

استعمل المعجميون وعلماء اللغة الأوائل مصطلحات مقابلة لمصطلحي الفصحى والفصيحة ، وذلك في أثناء وصفهم الألفاظ التي خالفت مقاييس هذين المصطلحين ، وقد سبق للباحث أن أصلها ومثّل لها في بحث سابق له [٩١] لذا ستقتصر مهمة هذا البحث هاهنا على ذكر أهم هذه المصطلحات مجردة من نصوصها؛وذلك تجنبا للإطالة ، وها أنا أسرد أشهر هذه المصطلحات : ليس من كلام العرب [٩٢] ،

([٨٩]) التهذيب : ٢٨/٩.

([٩٠]) م.ن : ١٠٧/٣.

([٩١]) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ٥٧ ــ ٨١ .

([٩٢]) ينظر: التهذيب : ٢١٤/١٥.

لغة رديئة.[٩٣] ، لغة شنعاء[٩٤] ، لغة قبيحة ، [٩٥] لغة مرغوب عنهـا[٩٦] لغة ليست بجيدة[٩٧] .لغة ضعيفة[٩٨] لغة قليلة[٩٩] لغة ليست بالعالية[١٠٠] لغة ليست بالفصيحة[١٠١] ليس بالقوي[١٠٢] ليس بالمأخوذ به[١٠٣] ليس بعربـي محض[١٠٤] المحدث[١٠٥] المولد[١٠٦].

([٩٣]) ينظر : الصحاح :٤/١٦١٥.

([٩٤]) ينظر : الجمهرة :١/٤٧٩ ، والمحيط في اللغة : ٢/١٨٩.

([٩٥]) ينظر : التهذيب: ٣/١٠٨ ، والمجمل : ٤/٥٦٥ .

([٩٦]) ينظر : الجمهرة : ١/٤١٤ ، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء : ٢/٦٧١.

([٩٧]) ينظر : التهذيب : ٩ /٢٩٥ .

([٩٨]) ينظر : ديوان الأدب : ٣ /٢٧٥.

([٩٩]) ينظر : الصحاح : ٥/١٨٠٨.

([١٠٠]) ينظر : الجمهرة : ٢ /١٠٩٧.

([١٠١]) ينظر : التهذيب : ١٠/١٨٩.

([١٠٢]) ينظر : الجمهرة : ١/٦٣.

([١٠٣]) ينظر : م.ن:١/٢٩٥.

([١٠٤]) ينظر : م.ن : ٢ /٧٢٦

([١٠٥]) ينظر : المقاييس : ٣ /٣٨٠.

([١٠٦]) ينظر : م.ن : ٣/٢٠٥.

المبحث الثاني

الإشكالية لدى علمائنا القدماء منذ نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة

أخذ اللغويون والمعجميون باستعمال مصطلح اللغة الفصحى بلفظه الصريح وبمفهومه الاصطلاحي الذي وضحناه في تمهيد هذا البحث ، وذلك ابتداء من الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة ، و استمر فيما تلاه من قرون حتى صار المصطلح أكثر شيوعا من ذي قبل في بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، ففي الوقت الذي اقتصر استعماله بلفظه الصريح على موضع واحد طوال أربعة القرون الأول من هجرة نبينا المجتبى"صلى الله عليه وسلم" ، شاع استعماله في القرون التالية ، حتى بلغ عدد المواضع التي ورد فيها (ثمانية وأربعين موضعا).أما مصطلح اللغة الفصيحة فكان استعماله أقل اطرادا من الفصحى ، إذ بعد أن كان مستعملا في (ثلاثة وعشرين موضعا) حتى نهاية القرن الرابع للهجرة ، صار مستعملا في (تسعة وثلاثين موضعا) حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، ناهيك عن أن كثيرا من النصوص التي ورد فيها المصطلحان قد وردت في كتب الأوائل من اللغويين والمعجميين.

يتضح مما تقدم أن استعمال هذين المصطلحين قد بقي محدودا ، إذ تبقى المواضع التي ذكرا فيها معدودة إذا ما قيست بعشرات الأجزاء من المعجمات وكتب اللغة ، ومن المعجميين الذين استعملوا المصطلحين في معجماتهم بعد القرن الرابع للهجرة ابن سيده (ت٤٥٨هـ) الذي استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في (ثلاثة مواضع) ، نذكر منها قوله : ((الضّلالُ

والضَّلاَلَةُ ضد الهُدَى ضَلَلْتَ تَضِلُّ هذه اللغة الفصيحةُ وضَلَلْتَ تَضِلَّ ضَلالا وَضلالةً وقال كراعٌ وبنو تميمٍ يقولون ضَلِلْتُ أَضَلَّ وقال اللحيانيُّ أهلُ الحجازِ يقولون ضَلَلْتُ أضِلُّ وأهلُ نَجْدٍ يقولون ضَلَلْتُ أَضَلُّ وقد قرؤوا جميعا (قُلْ إنْ ضَلَلْتُ[١٠٧] وضَلَلْتُ))[١٠٨] ، قال وكان يحيى بن وَثَّاب يقرأ كلَّ شيءٍ في القرآن ضَلِلْتُ وضَلِلْنَا بكسر اللام ورَجُلٌ ضالٌّ [١٠٩]...)) ، يتضح من هذا النص أن ابن سيده لم يكن دقيقا في إطلاقه مصطلح "اللغة الفصيحة" في هذا المقام؛ لأن السياق الذي وردت فيه يجعلها أقرب إلى الفصحى منها إلى الفصيحة هذا من جهة ؛ولأنه قابلها بلغات قبائل عربية فصيحة من جهة أخرى ، وهذا يعني انه قد خلط بين المصطلحين وهذا أحد وجهي الإشكالية لديه ولدى من جاء بعده من المعجميين وعلماء اللغة .

وإذا كان ابن سيده قد ذكر مصطلح اللغة الفصيحة في ثلاثة مواضع ، فإنه لم يذكر مصطلح اللغة الفصحى إلا في موضع واحد في محكمه كله ، جاء ذلك في قوله ((والدِّجْر ، بكسر الدال : اللوبيا ، هذه اللغة الفصحى.وحكى أبو حنيفة الدِّجْر ، والدَّجْر ، بكسر الدال وفتحها ، ولم يحكها غيره إلا بالكسر))[١١٠].

---

(١٠٧) ممن قرأها بكسر اللام الأولى الحسن البصري و عبد الرحمن المقري ، وابن وثاب ، ينظر : البحر المحيط ٢٩٢/٧.

(١٠٨) أما القراءة بفتح اللام الأولى فهي تمثل الرسم المصحفي ، سورة سبأ : الآية ٥٠.

(١٠٩) المحكم : ٨ /١٥٣ ، وينظر : م.ن : ٣ /٢٦٧.

(١١٠) المحكم والمحيط الأعظم : ٥ / ٤٣٤ .

أما الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ) الذي سمى معجمه "أساس البلاغة " فإني لم أجد في معجمه ذكرا للمصطلحين ، وممن استعمل المصطلحين من المعجميين الحسن بن محمد الصغاني المتوفى سنة(٦٥٠هـ) الذي استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في خمسة الأجزاء المطبوعة من معجمه "العباب الزاخر واللباب الفاخر" ، في موضعين ، أحدهما يتمثل بقوله : ((مَسِسْتُ الشَّيْءَ -بالكسر- أَمَسُّه مَسّا ومَسِيْسا ومِسِّيْسى -مثال خِصِّيْصى- ، هذه هي اللُّغَة الفصيحة ، وحَكى أبو عُبَيْدَة : مَسَسْتُه -بالفتح- أَمُسُّه -بالضم- ([111]))) . إن عد الصغاني كسر عين الماضي في (مَسِسْتُ) اللغة الفصيحة ، وذكره رواية أبي عبيدة بفتح عين الفعل على أنها لغة في الكسر يدل دلالة واضحة على أن كسر العين يمثل اللغة الفصحى لا الفصيحة كما ذكر ، وهذا أحد وجهي الإشكالية أيضا ، وإذا كان الصغاني قد ذكر مصطلح اللغة الفصيحة في موضعين ، فإنه ذكر مصطلح اللغة الفصحى في أربعة مواضع نذكر منها قوله : ((التَّعْسُ : الهلاك ، وأصله الكَبُّ . وقوله تعالى: (فَتَعْسا لهم)[112] أي فَعِثارًا وسقوطًا. وإذا سقط الساقِط فأُريدتْ به الاستقامةُ قيل : لَعا له : وإذا لم يُرَدْ به الانتعاشُ قيل : تَعْسًا ... وقال الزجّاج : التَّعْسُ في اللغة: الانحطاطُ والعُثُورُ ، قال وقوله تعالى : (فَتَعْسا لهم) يجوز أن يكون

([111]) العباب حرف السين : ٤٢٦ .

([112]) سورة محمد ، من الآية / ٨ .

نصبا على معنى ألزَمَهم الله ، يقال: تَعَسَ يَتْعَسُ- مثال مَنَعَ يَمْنَعُ- ، وهذه هي اللغة الفصحى)) .[١١٣]

أما ابن منظور المتوفى سنة (٧١١هـ) ، فإنه ذكر في معجمه "لسان العرب" مصطلح اللغة الفصيحة في ثمانية مواضع ، و ذكر مصطلح اللغة الفصحى في موضعين ، ولا نرى الكلام على إشكالية مصطلحي الفصيحة والفصحى في كتابه ذا جدوى ؛ لأن التوثيق أثبت أن معظم النصوص التي ورد فيها المصطلحان في اللسان منقولة من أصوله الخمسة ، ما عدا نصا واحدا ذكر فيه مصطلح الفصحى ، مع أنه غير مذكور في النص الذي ورد في أصول كتابه ، وهذا النص هو : ((العَزَبُ الذي لا زوجة له ويروى الأعزب ، وهي لغة رديئة ، واللغة الفصحى العَزَب))[١١٤] ، إن عدم ورود مصطلح الفصحى في مادة "عزب" التي وردت في أصول اللسان ، وروده في نص اللسان يعد دليلا على أن المصطلح صار أكثر شيوعا من ذي قبل ؛ لذا أضافه ابن منظور إلى النص المقتبس من مصادره .

أما الفيومي(ت٧٧٠هـ) الذي إنماز معجمه بصغر حجمه قياسا بغيره من المعجمات الأخر فقد ذكر مصطلح الفصحى في سبعة مواضع ، ثلاثة منها قال عنها : " وبها جاء القرآن" ، منها قوله : ((ضلَّ الرجل الطريق وضل عنه يَضِلُّ من باب "ضرب"ضلالةً زل عنه فلم يهتدِ إليه فهو

---

(١١٣) العباب ، حرف السين : ص ٥٦ ــ٥٧.

(١١٤) اللسان : ٣٠/١١ .

ضالٌ هذه لغة نجد وهي الفصحى وبها جاء القرآن في قوله تعالى[١١٥] : "قلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسي"))[١١٦]. إن هذا النص يقدم لنا دليلا قويا على وجود إشكالية في استعمال مصطلحي الفصيحة والفصحى ، فالفيومي عد صيغة الفعل" ضَلَلْتُ " الفصحى؛ لأن القرآن قد جاء بها ، في حين عدها الجوهري في الصحاح وابن سيده في المحكم " الفصيحة"، مع إشارتهما إلى ورودها في القرآن أيضا ــ كما ذكرنا آنفا ــ ومثلهما فعل ابن منظور عندما نقل النص من أحدهما [١١٧] ، الحق إن السياق اللغوي يرجح ما ذهب إليه الفيومي ؛ وذلك لأن هناك إجماعا على أن اللغة إذا وردت في القرآن هي أفصح مما في غير القرآن .

لكن الفيومي أشكل عليه استعمال مصطلح الفصيحة في نصين هما الوحيدان اللذان ذُكِرَ فيهما هذا المصطلح ، قال في الأول : ((نَصَحْتُ لِزَيْدٍ أَنْصَحُ نُصْحًا ونصيحةً هذه اللُّغَةُ الفصيحةُ وعليها قوله تعالى "إنْ أَردتُ أنْ أَنْصَحَ لكُمْ"[١١٨] ، وفي لغة يتعدى بنفسه فيقال نصحته وهو الإخلاص والصِّدقُ والمشورةُ ...))[١١٩] ، وقال في الثاني : ((ونقصته يتعدى ولا يتعدى هذه اللغة الفصيحة وبها جاء القرآن في قوله : "نَنْقُصُها

([١١٥]) سورة : سبأ ، الآية / ٥٠ .

([١١٦]) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : ٢ /٣٦٣ ، وينظر : م.ن : ١/٥٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، و٢/٤٣١ ، ٤٥٣ ، ٦٤٦.

([١١٧]) ينظر : اللسان : ١١ /٣٩٠.

([١١٨]) سورة الأعراف : الآية / ٦٢ .

([١١٩]) المصباح المنير : ٢ / ٦٠٧ .

من أطرافها"[١٢٠] ... وفي لغة ضعيفة يتعدى بالهمزة والتضعيف ، ولم يأت في كلام فصيح))[١٢١] ، فقارئ هذه النصوص سيكون في حيرة من أمره ، فالفيومي عد صيغة "ضلَلْتُ" الفصحى؛ لأن القرآن قد جاء بها ، ثم يشكل الأمر على القارئ حين يقول عن " نصحت لزيد" هذه اللغة الفصيحة وعليها قوله تعالى ، ثم يزيد الأمر إشكالا عندما أكد أن تعدية الفعل نقص بنفسه يمثل اللغة الفصيحة ؛ لأن القرآن جاء بها ، فلا يدري القارئ ولا ندري نحن معه أفصيحة لغة القرآن أم فصحى؟! أم أن المصطلحين مترادفان !! الحق إن في الأمر لإشكاليةً كبرى ، ولا نقول كبيرة؛لأن هناك فرقا بينهما كالفرق بين الفصحى والفصيحة.

أما الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) " فلم يذكر مصطلحي الفصيحة والفصحى في كتابه "القاموس المحيط إلا في موضعين ، الموضع الأول ذكر فيه مصطلح الفصيحة ، يتمثل بقوله : ((والعَكِدُ ، ككَتِف : اليابسُ من الشجر ، بعضُها فوقَ بعضٍ . وكسَحاب: جبلٌ قُرْبَ زَبيدَ ، أهلُها باقِيَةٌ على اللُّغَةِ الفصيحةِ))[١٢٢] ، يلاحظ أن الفيروزآبادي قد خلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى فلو قال : " باقية على اللغة الفصحى ، لكان أكثر تساوقا مع السياق . أما الموضع الثاني الذي ذكر الفيروزآبادي فيه مصطلح الفصحى فيتمثل بقوله: ((ورحَّمَ عليه ترحيما ، وترحَّمَ والأولى الفصحى))[١٢٣].

([١٢٠]) سورة الرعد : من الآية ٤١ .

([١٢١]) المصباح : ٦٢١/٢.

([١٢٢]) القاموس المحيط: ٥٨٣/١.

([١٢٣]) م.ن: ٤/ ١١٩.

ولم يكن السيوطي (٩١١هـ) المعروف بجمعه أقوال من سبقه من العلماء أوفر حظا من الفيروز آبادي ، إذ على الرغم من أنه قد خصص النوع التاسع في كتابه "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لـ (معرفة الفصيح) فإنه لم يستعمل " المصطلحين إلا في ستة مواضع ، خمسة مواضع ورد فيها مصطلح اللغة الفصيحة ، وأثبت التحقيق أن السيوطي كان ناقلا عن غيره في هذه المواضع كلها[١٢٤] ، وموضع واحد ورد فيه مصطلح اللغة الفصحى ، ومن أمثلة استعماله مصطلح اللغة العربية الفصيحة ما رواه عن ابن دريد حين قال : ((قال ابن دريد في كتاب الملاحن: هذا كتاب ألّفناه ليفزع إليه المُجبَرُ المُضْطَهد على اليمين المُكْرَه عليها فيعارِضُ بما رسمناهُ ، ويضمر خلافَ ما يظهر ليَسْلَم من عادية الظالم ويتخلَّص من جَنَف[١٢٥] الغاشم وسمّيناه الملاحن واشتَقَقْنَا له هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة التي لا يشوبُها الكدَر ولا يستولي عليها التكلّف [١٢٦])) ، فالذي يتضح من سياق النص أن مصطلح اللغة العربية الفصيحة الذي ورد فيه لا يعبر عن المستوى اللغوي الذي ينطبق عليه هذا الوصف ؛ لأن مصطلح اللغة العربية الفصحى أنسب للسياق من

([١٢٤]) ينظر : المزهر ١ /٥٦٨،٢٥٠،٢٢٦،٢١٥ ، و٢/١٥٨، وقد صرح السيوطي بنقله هذه النصوص التي ورد فيها مصطلح اللغة الفصيحة من شرح الفصيح لابن درستويه ، والمقصور والممدود للقالي ، والخصائص لابن جني ، والملاحن لابن دريد ، والجمهرة على التتالي .

([١٢٥]) في كتاب الملاحن الذي اعتمدت عليه: ص١٥ "حيف الغاشم" ، والحيف والجنف : الظلم والجور.

([١٢٦]) المزهر : ١ /٢٥٠ ، وينظر: الملاحن : ص ١٥.

اللغة العربية الفصيحة ، والعهدة في هذا على ابن دريد الذي نقل السيوطي كلامه كما جاء في الملاحن . أما الموضع الذي استعمل السيوطي فيه مصطلح الفصحى فيمثله قوله : ((ليس في كلامهم اسم أوله ياء مكسورة إلاّ يِسار لليد اليسرى لغة في اليَسار والفتح هي الفصحى)) [١٢٧] ، وعند رجوعنا إلى المعجمات القديمة وجدنا الجوهري قد ذكر هذا النص ، لكنه لم يذكر مصطلح الفصحى ، بل منع كسر الياء الذي عده السيوطي لغة ، قال الجوهري : ((واليسار: خلاف اليمين ، ولا تقل اليسار بالكسر))[١٢٨] ، ولعل السيوطي هو الذي أضاف مصطلح الفصحى ، أو أنه نقله من أحد مصادره .

وإذا ما انتقلنا إلى آخر معجم يحسب على المعجمات القديمة ألا وهو"تاج العروس من جواهر القاموس" للزَّبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ) ، فإننا نجده قد استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في (ثمانية عشر موضعا) ، وها نحن نورد مثالا على استعماله مصطلح اللغة الفصيحة ؛ لنوضح من خلاله أن إشكالية الخلط بين المصطلحين ما زالت قائمة ، قال الزَّبيدي متحدثا عن الاسم الذي لا ينصرف : ((وما فيه سَبَبان في الثُّلاثيِّ الساكن الحَشْوِ كنُوحٍ ولُوطٍ مُنْصَرفٌ **في** اللُّغَة الفَصيحة التي عليها التَّنْزيلُ))[١٢٩] ، فالزَّبيدي في هذا النص سمى اللغة التي عليها

([١٢٧]) المزهر : ٢ /٧٩.

([١٢٨]) الصحاح : ٣ /٤٢٣.

([١٢٩]) التاج : ٢٢/٢٤.

التنزيل بالفصيحة ، فالأدق أن يقول " اللغة الفصحى" كما هو واضح من السياق .

أما استعمال الزَّبيدي مصطلح اللغة الفصحى فإنه لم يغير شيئا مما توصلنا إليه؛لأن الزَّبيدي الذي يحسب من المتأخرين والذي يعد معجمه من أكبر المعجمات العربية لم يستعمل مصطلح الفصحى في أجزاء معجمه الأربعين إلا في (ثلاثين موضعا) ، أحدها سبقه إلى ذكره ابن سيده في المحكم ، وآخر سبقه إلى ذكره الصغاني في العباب ، وثلاثة مواضع سبقه إلى ذكرها الفيومي في المصباح ، وكثير منها سبقه إليها معجميون آخرون ، وها نحن نورد مثالين على استعماله مصطلح اللغة الفصحى:المثال الأول قوله: ((وتثاءب على تفاعل بالهمز ، هي اللغة الفصحى التي اقتصر عليها في الفصيح[١٣٠] وغيره ، ومنعوا أن تبدل همزته واوا ، قال في المصباح: إنها لغةُ العامة [١٣١] ، وصرح في المغرب بأنها غلطٌ ، قاله شيخنا ، ونقل ابن المكرم عن ابن السكيت: تثاءبت ، على تفاعلت ، ولا تقل: تثاوبت))[١٣٢] ، فقول الزَّبيدي" اقتصر عليها في الفصيح وغيره " يعني أن كل ما اختاره ثعلب يمثل اللغة الفصحى ، وهذا يعزز ما ذهبنا إليه من أن ثعلبا أول من لمح إلى مصطلح الفصحى في "كتاب الفصيح".

([١٣٠]) ينظر : الفصيح ص٢٧٩.

([١٣١])ينظر : المصباح : ٨٧/١ ، ومما جاء فيه : ((وتثاءب بالهمز تثاؤبا ... وتثاوب بالواو عامي)) .

([١٣٢]) تاج العروس من جواهر القاموس : ٨٠/٢ .

والمثال الثاني الذي نورده من التاج هو قول الزَّبيدي: ((الكَبْدُ بالفتح مع السكون مخفف من الكَبِد كالفَخْذِ والفَخِذ. والكسر مع السكون ، وهو أيضا مخفف من الذي بعده ، كالكِذْبِ والكَذِب ، واللغةُ المستعملةُ المشهورةُ الكَبِدُ ، ككَتِفٍ ، وبه صدَّر الجوهريُّ والفيوميُّ وسائرُ أئمَّةِ اللغة. بل أغْفَلا اللغةَ الأولى ، وإنما ذكره صاحب اللسان ، فكان ينبغي للمصنف أن يقدم اللغة الفصحى المشهورة على غيرها))[١٣٣] ، فالزَّبيدي ذكر مصطلحا معادلا آخر للفصحى هو "اللغة المشهورة ، وهو يؤاخذ الفيروزآبادي ؛ لأنه أرجأ اللغة الفصحى المشهورة ، وقدم غيرها عليها.

ما تقدم كان عرضا موجزا وضحنا فيه كيف تعامل المعجميون المتأخرون مع مصطلحي الفصيحة والفصحى ، ركزنا فيه على الوجه الأول من وجهي الإشكالية المتمثل بالخلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى . أما الوجه الثاني المتمثل بتعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة و الفصحى فلم نر ضرورة لتقديم نماذج على وجوده؛ لأن المصطلحات التي استعملها المعجميون المتأخرون معادلةً لمصطلحي الفصحى والفصيحة تكاد تكون هي المصطلحات نفسها التي استعملها المعجميون الأوائل ، وهذا يعني أن الوجه الثاني من وجهي إشكالية المصطلحين بقي قائما أيضا كما كان عند علماء اللغة والمعجميين الأوائل ، لأن المتأخرين من المعجميين وعلماء اللغة استندوا في معظم ما أودعوه معجماتهم من المواد اللغوية إلى من سبقهم من المعجميين الرواد ومن جاء بعدهم حتى نهاية القرن الرابع للهجرة . ناهيك عن أن

---

(١٣٣) م.ن : ٨٩/٩ .

المتأخرين قد استعملوا مصطلحات مقابلة للفصحى والفصيحة كما فعل أسلافهم ، ولم نر ضرورة لتقديم نماذج على ذلك ، لأن في هذا تكرارا لا مسوغ منهجي له .

أما المحدثون والمعاصرون من الباحثين العرب وغيرهم فقد عرفوا مصطلحي الفصيحة الفصحى ، واستعملوهما في كتبهم وأبحاثهم ، وأصبح شيوعهما لافتا ، فظهرت كتب وأبحاث تشتمل عنواناتها على هذين المصطلحين[١٣٤] ، فعليه فإن الإشكالية تكمن عند قسم من المحدثين في عدم وضوح المفهوم لديهم مما أدى إلى الخلط بين المصطلحين ، وقد تعاملوا معهما وكأنهما مصطلحان مترادفان ، هذا فضلا عن ارتجالهم مصطلحات لا تتوافر فيها شروط صناعة المصطلح اللغوي ، وليس من مهمة هذا البحث الكلام على هذه الإشكالية ؛ لأن عنوانه حدد دراسة الإشكالية في تراثنا اللغوي ، هذا فضلا عن الإشكالية قد بلغت أوجها في أيامنا ؛ ولأن الكلام عليها ، وعرض نماذج عنها من كتابات المحدثين والمعاصرين يحتاج إلى عشرات الصفحات ، وربما احتاج إلى أن نفرد له بحثا قائما برأسه آمل أن أنجزه مستقبلا إن شاء الله .

---

(١٣٤) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الكتب والأبحاث الآتية :

- العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد : لهنري فليش ، الذي أصدره سنة ١٩٥٦م .
- الجانب المعجمي في الجملة العربية الفصحى : للمؤلف نفسه.
- ملاحظات عن الدراسة الصوتية التنظيمية في العربية الفصحى: للمؤلف نفسه.
- العربية الفصحى والعربية اللهجية : للمؤلف نفسه.
- كتاب قصة التحول إلى الفصحى : الدكتور نهاد الموسى.

المصادر والمراجع

* **كتاب الإبدال** : أبوالطيب اللغوي (ت٣٥١هـ) ، تحقيق عز الدين التنوخي ، دمشق ١٣٧٩هـ =١٩٦٠م .
* **الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل العربية واللغة الموحدة** : د. هاشم الطعان ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م
* **الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس** : د. محمد حسن حسن جبل ، مطابع الدجوي القاهرة ١٩٨٦.
* **أصالة اللغة العربية وعلومها** : د. إبراهيم عبد الله رفيدة ، بحثه في مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٦ ، السنة الرابعة ١٩٨٢.
* **إعراب القرآن : أبو جعفر النحاس(ت٣٢٨هـ) ، تحقيق : د. زهير غازي ، ط٢ بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨م .**
* **الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) ، ط٢ مؤسسة المختار ، القاهرة ٢٠٠٢ م = ١٤٢٢هـ .**
* **البحر المحيط** : أثير الدين محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى .
* **تاج العروس من جواهر القاموس** : الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) ، طبعة حكومة الكويت ، الكويت ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م .

تحقيق : عبد الستار أحمد فراج وآخرين . ونشرة دار الهداية بالنسبة للأجزاء من ٢٧ ــ ٤٠ ، تحقيق مجموعة من المحققين .

* **تاج اللغة وصحاح العربية** : إسماعيل بن حماد الجوهري (ت حدود ٤٠٠هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٧ م .
* **التعريفات** : أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني(ت٨١٦هـ) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ت .
* **التلخيص في معرفة أسماء الأشياء** : أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : د. عزة حسن ، مطبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٩م .
* **تهذيب اللغة** : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، وغيرها ، ١٣٨٤هـ =١٩٦٤م وسنوات أُخر.
* **جمهرة اللغة** : محمد بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ) ، تحقيق : د. رمزي منير بعلبكي ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت١٩٨٧م .
* **الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية** : د.محمد ضاري حمادي ، ط١ مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت١٩٨٢.

*حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن : ناظم محمد مصطفى ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ١٤٢٦ هـ =٢٠٠٥م .

* **الخصائص** : أبو الفتح عثمان ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ، بيروت ــ لبنان ، د.ت.

* **دراسات في فقه اللغة** : د.صبحي الصالح ، ط٤ دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٧٠هـ =١٩٧٠م ..

* **ديوان الأدب** : الفارابي (ت٣٥٠هـ) ، تحقيق : د. أحمد مختار عمر ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٧٤م .

* **ديوان النابغة الذبياني** : تحقيق د. شكري فيصل ، مطابع دار الهاشم ، بيروت ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م .

* **الصرف الواضح** : عبد الجبار النايلة ، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

* **الصرف الوافي دراسة وصفية تطبيقية في الصرف وبعض المسائل الصوتية** : أ. د. هادي نهر ، مطابع التعليم العالي ، الموصل ١٩٨٩م .

* **العباب الزاخر واللباب الفاخر ، حرف السين** : الحسن بن محمد الصغاني (ت٦٥٠هـ) ، تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد١٩٨٧م .

* **العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب:** يوهان فك ، ترجمة د.رمضان عبد التواب ، ط٢ ، المطبعة العربية الحديثة ، مصر ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م.
* **العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد** : هنري فليش ، تعريب وتحقيق : الدكتور عبد الصبور شاهين ، دار المشرق ، بيروت ١٩٨٦م .
* **الفصاحة فصاحات** أو الدعوة إلى ضرورة مراجعة أصول الفصاحة : محمد رشاد الحمزاوي ، حوليات الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد ١٦، ١٩٧٨ ، ص٤٨ .
* **القاموس المحيط** : الفيروزآبادي ، مطبعة البابي الحلبي ، ط٢ ،١٣٧١ هـ =١٩٥٢م القاهرة .
* **قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي : د.عبد العلي الودغيري ، ط١، منشورات عكاظ ، الرباط١٤٠٩هـ =١٩٨٩م .**
* **كتاب سيبويه** : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، مطبعة المدني ، ١٩٨٨م .
* **كتاب العين** : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (ت١٧٥هـ) ، تحقيق ، د.مهدي المخزومي ، ود. إبراهيم السامرائي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٠ ـ١٩٨٥م .
* **كتاب الفصيح** : أبو العباس ثعلب (ت٢٩١هـ) ، تحقيق : د. عاطف مدكور ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .

* **كتاب "ليس في كلام العـرب** : لابن خالويه (٣٧٠هـ) تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٢ ، مكة المكرمة ١٩٧٩م .
* **لسان العرب** : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بـن منظـور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار صـادر ، دار بيـروت ، ١٩٥٦م .
* **اللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصـف ، والأحكـام** : د. هادي نهر ، من أبحاث المؤتمر العلمي الـسابع لوحـدة الدراسـات العمانية ، بعنوان ابن دريد الأزدي .
* **اللُّغَةُ العربيَّةُ بينَ العامياتِ الدَّارجاتِ والفَصيحَةِ المُرْتَجَاة** : أ.د.عامر باهر الحيالي ، بحث مقدم إلى مـؤتمر "اللغـة العربيـة وتحـديات العصر" ، الذي ينظمه قسم اللغة العربية في كليـة الآداب/جامعـة الحسين بن طلال ، والذي كان من المفترض أن ينعقد فـي مدينـة معان ، للمدة ٢٧ ــ ٢٩/١٠/ ٢٠٠٩ ، لكن انعقاده قد أجـل إلـى إشعار آخر.
* **مجمع الأمثال** : أبو الفضل الميداني(ت ٥١٨هـ) ، حققـه وفـصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميـد ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .
***مجمل اللغة** : أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) ، تحقيـق : الـشيخ هـادي حسن حمودي ، ط ١ ، منشورات معهـد المخطوطـات العربيـة ، الكويت ١٩٨٥م .

*المحكم والمحيط الأعظم في اللغة : علي بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق عبد الحميد الهنداوي ، الدار العلمية ، بيروت ٢٠٠٠م .

* المحيط في اللغة : الصاحب بن عباد(ت٣٨٥هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٤م .

*المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت .

* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : أحمد بن محمد المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية ، بيروت .

* معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء : د.عبد العال سالم مكرَم و د. أحمد مختار عمر ، ط٣ ، عالم الكتب القاهرة ١٩٩٧م .

* مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) : تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة ١٩٧٩م .

* الملاحن : ابن دريد الأزدي ، صححه ، وعلق عليه ، وذيَّله بذيل أبو اسحاق إبراهيم اطفيّش الجزائري ، الناشر مكتبة الشرق الجديد ـ بغداد ١٩٩٠م .

* **من إسرار اللغة** : د. إبراهيم أنيس ، ط٢ ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٨م .
* **النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة** ، عامر باهر الحيالي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الوهاب محمد علي العدواني ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م .
* **الوجيز في فقه اللغة** : محمد الأنطاكي ، ط ٢، منشورات دار الشرق ، ١٣٨٩هـ -١٩٦٩م .